

الحوالات الحبسية مصدرا لتاريخ تطوان العمراني خلال القرن الثامن عشر

ذ. خالد الرامي

باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

يجمع الباحثون في تاريخ المدينة المغربية على شح المعلومات التاريخية المتصلة بالجوانب الحضرية في الاستغرافيا التقليدية، مما دفع بعضهم إلى التنقيب عن مصادر جديدة، والتعريف بقيمتها التاريخية، وفي هذا الإطار يأتي كتاب المصادر العربية لتاريخ المغرب لمؤلفه الأستاذ محمد المنوني،³³⁹ لميز بين نوعين من المصادر وهي:

- مصادر موضوعية: وأدرج في إطارها كتب تاريخ الدول والتراجم والفهرسات.

- ومصادر دفينية: وأهمها كتب الجغرافيا والرحلات وكتب النوازل ودواوين الشعر والكناشات والمؤلفات المناقبية ووثائق الحوالات الحبسية. وفي إطار النوع الثاني سنحاول في هذه المداخلة إثارة الانتباه إلى أهمية الحوالات الحبسية كمصدر غني بالمعلومات، وقناة أساسية نحو دراسة الجوانب المغيبة في تاريخ المدينة.

تعود أقدم الحوالات المحفوظة بنظارة أوقاف مدينة تطوان إلى بداية الدولة العلوية، وبالضبط إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل، الذي أصدر أوامره للمشرفين على المؤسسات الحبسية في جميع أنحاء المغرب بإحصاء الممتلكات الحبسية، وتدوينها في سجلات خاصة عرفت بالحوالات الحبسية³⁴⁰. وهو ما يتفق مع تواريخ أقدم الوثائق المسجلة في الحوالات المحفوظة بنظارة أوقاف المدينة.

وتمتاز الحوالات الحبسية على المصادر الدفينية الأخرى في العديد من الجوانب التوثيقية هي:

1 - احترام الوثائق الوقفية لشروط التوثيق الصارمة، تجنب الباحث إهدار طاقته في متهاتات إثبات صحة الأصل وتحديد هوية المؤلف أو الناسخ، وتاريخ

³³⁹ - المنوني محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الجزء الأول 1983، الجزء الثاني 1989.

³⁴⁰ - بلمقدم رقية، أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1993، الجزء الأول، ص: 173.

ومكان تدوين الوثيقة، على اعتبار أنها من شروط صحة العقد. هذا في الوقت الذي نجد النوازل الفقهية وكتب المناقب تجرد مادتها من التواريخ والأمكنة وأسماء الأشخاص.

2 - الحوالة الحبسية سجل يدون فيه كل ما يتعلق بالمؤسسة الحبسية، من ظواهر سلطانية أحكام قضائية قرارات مخزنية شهادات خبرة بيع شراء جزاء محاضر محاسبة النظار وهو ما يجعلها، بدون مبالغة، منجم للمعلومات في مختلف مناحي التاريخ الحضري والحضاري.

3 - وثائق الحوالات الحبسية ووثائق إدارية لا تخضع لأهواء المؤلفين بل تسجل الوقائع على طبيعتها مصداقاً لقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا ياب كاتب أن يكتب، كما علمه الله فليكتب، وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه»³⁴¹. فالتوثيق عن طريق الكتابة يحصل في وقت لا نزاع فيه، وتقرر فيه الحقائق على طبيعتها، حتى إذا قدمت إلى القضاء نطقت بتلك الحقائق بدون غرض أو تحيز أو خطأ أو نسيان.³⁴²

4 - تبرز قيمة الوثيقة الوقفية من حيث نفاذها إلى صلب الحياة المجتمعية بشتى صورها والتي لم تعرها المصادر التقليدية أي اهتمام. فتقدم لنا معلومات ضافية عن التعليم ونوعية المواد المدرسة، كقوائم الكتب المحبسة على طلبة المدارس والمساجد، وأجور المدرسين، وتنظيم المؤسسة الحبسية وغيرها من القضايا التاريخية المسكوت عنها في مصادرنا التاريخية.

ويقتضي التنقيب في الحوالات الحبسية أن يتزود الباحث بأدوات منهجية ضرورية، بدونها لن تكون الاستفادة تامة نذكر منها:

1- التسلح بالصبر أثناء عملية البحث، لأن الباحث لن يجد مادته التاريخية جاهزة في عدد محدود من الحوالات، بل عليه أن يعلم أن هذه المادة ترد، في الغالب، عبارة عن إشارات متناثرة تتطلب منه تتبعها وجمعها ومقارنتها بعضها ببعض، حتى يمكنه الوصول إلى نتائج تكون مرضية بالنسبة له وتجب عن أسئلته العلمية.

كما يجب على الباحث الاطلاع على أكبر عدد ممكن من الحوالات، حتى لا تفوته معلومات قد تكون بالغة الأهمية بالنسبة لمجال اهتمامه، وهي عملية قد تأخذ أشهر عديدة إذا علمنا أن إمكانية أخذ صور لهذه الوثائق غير ممكن.

³⁴¹ - القرآن الكريم، سورة البقرة آية 282.

³⁴² - بن عبد الله محمد بن عبد العزيز، الوقف في الفكر الإسلامي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996، الجزء الأول، ص: 334.

2- المعرفة الجيدة بالخطوط القديمة، خصوصا وأن هذه الحوالات لم تكتب من بدايتها إلى نهايتها من طرف شخص واحد، بل تناوب على الكتابة فيها عشرات العدول والنظار، عاشوا في فترات زمنية تمتد لأربعة قرون، فتصعب قراءة بعض الخطوط، ويصعب التمييز بين الدال والراء والنون في آخر الكلمات.

3- المعرفة المناسبة بالمصطلحات المستعملة بالحوالات وبالعبارات العامية، وهو مشكل يمكن للباحث تجاوزه عن طريق استفسار المسنين أو أرباب الحرف إذا تعلق الأمر بمصطلحات مهنية كما يمكنه تجاوزه بكثرة احتكاكه بهذا النوع من الوثائق بحيث يكسبه خبرة في التعامل معها تتعزز كلما تقدم في عملية البحث.

4 - عدم التسرع بإعطاء النتائج من وثيقة واحدة والاطمئنان إليها، إلا بعد معرفة ظروفها ومقارنتها بوثائق أو مصادر أخرى، حتى تكون استنتاجاته تعبر عن الواقع.

5 - قد يجد الباحث مشاكل في قراءة العديد من الرسوم، بسبب المحو الذي لحق أسطرا أو كلمات منها، بفعل القدم وتغير لون المداد أو الورق أو ربما بسبب إصابة بعض صفحاته ببيل ماء أو رطوبة، والتي لن ينفع معها مجهود. وفي هذه الحالة يمكنه ملء هذا المحو بالكلمات أو العبارات المناسبة مع وضعها بين معقوفتين والإشارة إلى ذلك في الهامش.

6 - عدم استعمال النقاط والفواصل المساعدة على ضبط الجمل والمعنى، وهو ما قد يسبب للباحث نوع من الارتباك في بعض الأحيان، كما يجب أن ينتبه إلى الهوامش التي تسجل على يسار ويمين النص الأصلي، التي تكون إما تصحيحية أو استدرائية وفي جميع الحالات يتم تسجيل جميع هذه التسجيلات، في آخر الوثيقة وقبل توقيع العدول.

إشكالية ضياع الحوالات الحبسية:

بعد البحث الذي قمنا به بنظارة أوقاف تطوان تبين لنا أنها تزخر بثروة وثائقية نفيسة، إلا أن كثرة ما وصلنا من هذه الحوالات لا يصرف الباحث عن الأسف عن ضياع عدد مهم منها في تواريخ وظروف مختلفة، نذكر منها:

1- ضياع الحوالات بسبب الإهمال وعدم العناية بحفظها وتجنبيها عوامل التلف، فتتخر الأرضة أوراقها وتتمزق العديد من صفحاتها وتتفصل عن أصل الكناش الذي يفقد تماسكه وتتلاشى حواشيه بفعل الزمن وكثرة الاستعمال، وفي هذا الصدد تأتي الوثيقة التالية التي حاول الناظر الجديد من خلال كتابتها تبرئة ذمته من أية مسؤولية في ضياع حوالة الزاوية «الحمد لله وحده لما توفي السيد

أحمد بن عبد الرحمن الحاج النسب التطاوني وكان ناظرا على الزاوية الناصرية بتطوان التي هي قرب الجامع الأعظم وتحد بفندق النجار وتولى النظر بعده على الزاوية المذكورة الطالب السيد محمد بن محمد بن أحمد السلوي التطاوني وطالب ورثة الحاج المذكور في حوالة الزاوية المذكورة فأخرجوها ودفعت للناظر السلوي المذكور وهي متلاشية الأوراق فيها كثير من المحو والخرق وليس فيها ما يقرأ من أوله إلى آخره سالما من المحو والخرق إلا القليل فحازها السلوي المذكور معاينة وهي على الحالة المذكورة وليس فيها إحصاء رباع الزاوية المذكورة كلها وإنما أخذها أي رباع الزاوية المذكورة الناظر السلوي المذكور من زمام القبض الذي كان يقبض به الناظر الحاج المذكور مستفادها وهي المسطرة في وجه الورقة يسرة هذه حسبما عاينها شهيداه في زمام الحاج المذكور الذي أخرجه ورثته بعد موته وقيد هذا شاهدا به من عاين الحوالة المذكورة على الحالة المذكورة وعاين الرباع المشار إليها في زمام الناظر الحاج المذكور وذلك بالعشرين من شعبان عام واحد وستين بمثناة بعد مائتين وألف. [توقيع العدلين محمد بن عبد الله الصفار ومحمد بن علي عزيما].³⁴³

2- ضياع مجموعة من الحوالات الأصلية بسبب الإحتلال الإسباني لمدينة تطوان (1860-1862) حيث هجرها معظم سكانها فتعرضت بيوتهم وممتلكاتهم للسطو والنهب والحرق من طرف الغزاة المحتلين، وكذا من طرف أبناء جلدتهم ممن لا خلق لهم من الإنتهازيين والرعاع المستغلين للفرص.³⁴⁴

3- اختفاء بعض الحوالات وظهورها بعد مدة طويلة، كما هو حال حوالة مسجد غيلان، التي ظهرت بعد ثلاثين سنة من اختفاء ها، وفضح ظهورها تطاولا على ممتلكات هذا المسجد. فقد جاء في رسم مثبت بالجزء الثاني من حوالة الجامع المذكور مانصه: «الحمد لله نسخة ثلاثة رسوم والأداء عقب الأول والثالث منها أخذت لمس الحاجة إليها نص الأول لما صدرت الشهادة من الحاج عبد الكريم بن الحاج عبد الرحيم زنيير ومن المعلم محمد ابن الناس

³⁴³ - حوالة أحباس الزاوية الناصرية : 7/4.

³⁴⁴ - جاء في الاستقصا، عما شهدته مدينة تطوان قبيل دخول القوات الإسبانية إليها: «وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب، وخلع الناس جلياب الحياء، وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت، والداخل للمدينة أكثر من الخارج، وباتوا ليلتهم كذلك إلى الصباح، ولما طلع النهار وترأت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفسا وعظمت الفتنة» أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، القسم الثالث، الجزء التاسع، تحقيق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص: 91. وللاطلاع أكثر راجع الجزء الرابع من كتاب تاريخ تطوان للأستاذ محمد داود.

والأشيب محمد بن عبد الكريم محفوظ والمعلم أحمد ابن محمد الحساني والمعلم محمد بن الحاج أحمد عنيقد التطاونيين وكذا الطالب السيد عبد السلام بن علي الملياني بملكية فدان عين المزوق المحدود بغرسة بيصة وحبس أولاد لوقش والطريق للحاج أحمد بيصة وكان هذا الفدان من أصله من أحباس جامع غيلان ثابتاً في حوالتها التي ضاعت أيام الكرة³⁴⁵ هاذة مدة من ثلاثين سنة وأنعم الله تعالى على الجامع المذكور بظهورها وردّها عليه حضر الشهود المذكورون عدى السيد عبد السلام الملياني فإنه توفي رحمه الله مجلس الفقيه الأجل العالم العلامة الأفضل قاضي تطوان وهو سيدي محمد بن علي عزيماي الله وليه ومولاه أعزه الله تعالى بمنه وحرسها وقرئ عليهم ما صدر منهم من ملكية الفدان المحدود أنفاً للحاج أحمد بيصة فأجاب كل واحد منهم بأنهم لم يشهدوا بملكيتها له ولا بفصل من فصولها وإن غاية شهادتهم فيه له أنهم كانوا يمرون عليه فيجدونه يحرقه ولا يعرفون تصرفه فيه ببراء أو غيره وإن ما قيدت عليهم من الشهادة في ذلك لم يعرفوه ولا صدرت منهم وأنهم بتقدير صدورها منهم هم راجعون عنها متبرءون منها رجوعاً وتبرءاً تامين عرفوا قدره شهد به على إشهاده دامت كرامته بما فيه عنه وهو حفظه الله تعالى بحيث يجب له ذلك من حيث ذكر وعلى الشهود المذكورين بما فيه عنهم وهم بأتمه وعرفهم بالعشرين من صفر تسعة وثلاثمائة وألف»³⁴⁶.

4 - ضياع حوالة الجامع الأعظم في ظروف غامضة، وفي فترة غير مضبوطة إلا أنه من خلال بعض الإشارات يتضح أنها كانت ما تزال موجودة في عهد الحماية، بدليل ذكرها في بعض الكنائيش التي تعود إلى هذه الفترة، وتفيد الإشارات الواردة في الحوالات التي أحدثت بعد جلاء الاحتلال الإسباني عن المدينة أنها كانت أكبر وأضخم حوالة بالمدينة وكانت تسجل فيها أملاك جميع المساجد كما هو واضح من خلال هذا الرسم: «الحمد لله جميع ما اشتملت عليه هذه الحوالة من الأصول المكزية والمجزية ثمانية وعشرون (بل أربعة وستون) أصلاً بعضها كاملاً وبعضها الجزء منها وستة معادي مجزية منقولة من حوالة مسجد الأعظم المجموع فيها جميع أصول جميع مساجد تطوان أمنها الله من الكفر والطغيان قابلاً بأصلها المنتسخ منه فمائلته وأشهد بصحة المقابلة والمماثلة بأصلها المنتسخ منه فمائلته وأشهد بصحة المقابلة والمماثلة في الموفى عشرين من شعبان الأبرك عام أحد وثمانين ومايتين وألف. [توقيع العدل محمد بن علي الهراس والعاطف عليه محمد السلاسي]»³⁴⁷.

³⁴⁵ - الكرة كلمة إسبانية (guerra) تعني الحرب، والمقصود بها في الوثيقة حرب تطوان.

³⁴⁶ - حوالة أوقاف مسجد غيلان، الجزء 2: 41/30.

³⁴⁷ - حوالة أوقاف مسجد الجديدة: 6/17.

5 - حوالات في حكم الضياع بسبب شدة تلاشيها والتصاق أوراقها الواحدة بالأخرى بشكل يحول دون الإفادة منها وهذا حال جزء مهم من حوالتى مسجدى السويقة والرزيني.

التدبير العمراني الأصيل من خلال الحوالات الحبسية:

يعتبر التدبير العمراني الأصيل بالمدينة تجسيدا لفلسفة الإسلام في التعمير الذي يلخصه الحديث الشريف "لا ضرر ولا ضرار".³⁴⁸ وقد أجمع العلماء على صحته وإن كانوا قد اختلفوا في تأويله، من قائل أن معنى لفظي "الضرر" و"الضرار" واحد ووردت بهذه الصيغة تأكيدا في المنع من الضرر. إلى قائل أن "الضرر" ما كان بغير قصد و"الضرار" ما لم يكن للشخص فيه منفعة وعلى جاره المضرة.³⁴⁹

بإلقاء نظرة على التوزيع المجالي للحرف بمدينة تطوان يتبين أنها تشكل نموذج للتنظيم العمراني الأصيل، الذي ميز المدينة الإسلامية عن غيرها. وهكذا فقد تم تجميع وتوزيع الحرف بشكل يمنع الضرر ويمكن من مراقبة جودة المنتجات ويسهل على الزبون الوصول إلى حاجته بسهولة، ويدفع إلى التنافس.

وهكذا فقد أبعدت إلى الهوامش الصناعات التي من طبيعتها أن تسبب ضررا للسكان سواء من روائحها الكريهة أو ما تحدثه من ضوضاء أو الدخان، فجعلت دور الدباغة في هوامش المدينة، في كل من باب المقابر والجنوبي والقدان ورأس الرخامة، واستقر الحدادون في حي خاص بهم في الربض الأعلى بعيدا عن المساكن (الحدادين)، واستقرت دور صناعة الفخار خارج أسوار المدينة، وذلك لأن وجود هذه الصناعات في المناطق السكنية فيه ضرر على الراحة العامة.

وتم الاحتكام إلى العرف بكثرة في أحكام العمران، ويعود الأصل في اعتماده إلى الآية الكريمة "خذ العفو وأمر بالعرف".³⁵⁰ واعتمد فيه على العادة واعتبار الصالح العام دون مخالفة للشرع (القرءان والسنة). ومن بين الأعراف الكثيرة التي راجت بمدينة تطوان في مجال العمران ما أثبت في هذه الوثيقة:

348 - أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم 2870، رقم أحاديثه محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1993 ص: 408.

349 - أبو العباس أحمد بن يحيى الوئشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ج 8، ص: 474.

350 - سورة الأعراف، الآية: 199.

«تلقى شهيداه من العرفاء الثلاثة أحمد هيدور وأحمد بطوري وعبد الكريم الدهري شهادتهم بأن العرف الجاري في هذه البلدة التطوانية منذ أزمان أن من أراد إمرار الماء في عمل القواديس بزنقة نافذة لا يمنع من ذلك إذ لا ضرر فيه على أحد من أهلها فإن تعرض له في إمراره عمل آخر فإنه يمره كيفما أمكنه ذلك إما بجنبه أو تحته أو فوقه فإن حدث بسبب إمراره تكسر في العمل المعارض أو شق أو نحو ذلك فيصلحه هذا الممر له ويرد الزنقة كما كانت هذا هو العرف المعروف والشأن المعهود المؤلف وبذلك قيدت شهادتهم مسؤولية منهم».³⁵¹ كما أن الوثائق المنظمة لعمليات البناء لا تخلو واحدة منها من عبارات مثل: والذي عليه العمل في هذه البلدة التطوانية والمشهور في هذه البلدة وهذا هو العرف المعروف والشأن المعهود.

وبالإضافة إلى هاذين الأصلين الأساسيين (نفي الضرر والاحتكام إلى العرف) اعتمد قضاة المدينة في حل المشاكل المستعصية على فتاوي علماء نوازيون مشهورون أمثال العبدوسي وسحنون وابن فرحون وابن عتاب والونشريسي، واعتبروا مؤلفاتهم بمثابة مراجع قانونية يتم العودة إليها كلما استشكل الأمر أو خيف ارتباك التنظيم العمراني. «الحمد لله ما تضمنته شهادة العارفين حوله من الضرر اللاحق لمعدة دار الشبلي بارتفاع المشرب الثالث الذي بدار الحبس يجب قطعه وجعله حيث لا يبقى معه ضرر لقول ابن عتاب الذي أقول به وأنقله من مذهب مالك أن جميع الضرر يجب قطعه إلا ما كان من رفع بناء يمنع هبوب الريح وضوء الشمس وما كان في معناهما إلا أن يثبت القائم في ذلك أن محدث ذلك أراد الضرر بجاره على مال نقل ابن فرحون عن معين الحكام وهذا كله مالم يثبت قدم ارتفاع المشرب كما هو لقول التحفة وهو على الحدوث حتى يثبت قدمه لدى القضاء ثبتاً والله أعلم وكتبه (إمضاء العدل).³⁵²

الجهاز المشرف على التدبير العمراني :

كانت مهمة السهر على تطبيق هذا القانون منوطة بسلطات المدينة المحلية وعلى رأسها مؤسسة القضاء (القاضي وينوب عنه في حالة غيابه نائبه) التي من اختصاصاتها النظر في الطرقات والأبنية وحسم المنازعات وإصدار الأحكام.³⁵³

³⁵¹ - من وثائق الأستاذ عبد السلام الصفار.

³⁵² - وثائق نظارة الأوقاف، رقم: 40.

³⁵³ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الرابعة، دار القلم، بيروت- لبنان، 1981، ص:

فالقاضي هو المسؤول الأول على عمليات التخطيط والتدبير وجميع العمليات العمرانية يجب أن تخضع لمراقبته. وتعتبر عن هذا المعطى وثائق كثيرة بعبارات من قبيل "عن إذن من يجب أسماه الله" و"بموافقة من يجب أسماه الله" أو "عن إذن نايب من يجب أسماه الله". ويعتمد القاضي في تنظيمه للعمران على خبرة أرباب البصر. فمن هم أرباب البصر؟

أرباب البصر هم معلمين خبراء في حرفهم (بنائين- نجارين- معلمين قناويين ...) يتميزون بتجربتهم الطويلة، يرجع القضاة إلى مشورتهم فيما هم أبصر به، " وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء ويختلفون في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات... ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله".³⁵⁴

وفيما يلي نموذج من شهادات الخبرة التي كان يقدمها أرباب البصر للقاضي ليعتمدها في إصدار أحكامه « بعد وقوف الأمينين السيد الحاج محمد قاسم النجار والمعلم عاشور البنائي وأدائهما لدى من ذكر بأنه لا ضرر على المسجد المذكور في ممر الماء المذكور بصحبه معتمدا في ذلك فتوى الإمام العبدوسي حسبما نقلها عنه في نوازل الأحباس عن المعيار وفي إشهاد الأمينين المذكورين أنه يجب على البنائي المذكور أن يبنيه بناء متقنا».³⁵⁵

وكان المحتسب يكلف بمراقبة العمل ومنع المضايقات في الطرقات وإجبار أصحاب المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها.³⁵⁶ وفي هذا السياق تحتفظ لنا إحدى الحوالات الوقفية بوثيقة بالغة الأهمية مؤرخة بعام 1279هـ/ 1862م،³⁵⁷ وتتعلق بعقد جزاء المحتسب الحاج عبد العزيز الفقاي وأمين الجزارين السيد عبد السلام... باسم طائفة الجزارين فدان قرب باب التوت ليتخذ مجزرة وجرنة لأهل تطوان عوض تلك التي كانت بالفدان.³⁵⁸

354 - نفس المصدر، ص: 408-409.

355 - حوالة أوقاف جامع العيون، غير مرقمة.

356 - حوالة أوقاف جامع العيون، غير مرقمة.

357 - حوالة أوقاف زاوية سيدي علي بن مسعود الجعدي: 31/ 20.

358 - ظلت الجرنة طيلة القرن الثامن عشر بين سوق الحوت القديم والفدان، وعلى أثر حرب تطوان واحتلال المدينة من طرف الإسبان، بني في مكانها مقر للرهبان الفرنسيين، الذي صار مقرا للإقامة العامة الإسبانية في عهد الحماية، ثم مقرا لفتنسية إسبانيا بالمدينة بعد انتهاء الحماية، في حين تم نقل الجرنة إلى باب التوت كما تأكد ذلك الوثيقة التي بين أيدينا.

التطور العمراني من خلال الحوالات الحبسية:

أمام إجماع المصادر التقليدية عن التاريخ للتطور العمراني بمدينة تطوان، تبقى الوثائق الوقفية أفضل مصدر يمكن أن نعتمد عليه لدراسة التطورات العمرانية بالمدينة، وعلى ضئونها يمكن مراجعة ما كتب في هذا الموضوع تأكيداً لما يستوجب التأكيد وتصحيحاً لما يحتاج إلى التصحيح.

جاء في إحدى الدراسات حول التطور العمراني لمدينة تطوان خلال القرنين 16 و 17 ما يلي: «سيتم بناء السور الجديد في نهاية القرن التاسع و بداية العاشر الهجري، وبذلك ستصبح الأرباض التي كانت خارج المدينة المحصنة عبارة عن أحياء جديدة تحيط بها الأسوار التي ما تزال قائمة إلى يومنا هذا».³⁵⁹ فماذا تقول الحوالات الحبسية في هذا الموضوع؟

للإجابة عن هذا السؤال سنقتبس فقرات من نصوص بعض الوثائق المثبتة في حوالتين تعتبران من أقدم الحوالات المحفوظة بنظارة أوقاف تطوان.

ورد في حوالة مسجد العيون وثيقة عبارة عن قائمة بأحكام المسجد يقول النص: «تقييد ما يذكر ويفسر إن شاء الله من أحباس المسجد الأعظم من العيون خارج الثغر التطواني كلاه الله المنسوب للولي الصالح سيدي علي بن مسعود الجعيدي رزقنا الله رضاه وجعلنا في الدارين في حماه... مؤرخ بربيع الثاني سنة إحدى وسبعين وألف».³⁶⁰

وفي وثيقة أخرى مؤرخة بجمادى الثانية عام 1089هـ حبست السيدة رحمة بنت أحمد هريهر على بناء صومعة مسجد الرزيني وأيضاً على من يقرأ القرآن بزاوية الطرنكات.³⁶¹ وفي رسم آخر مؤرخ بربيع الثاني عام 1102هـ حبس شخص يدعى عيسى بن إبراهيم العواقي اليدري ثلث متخلفه بعد الموت ليعطى "بأجمعه لمسجد الرزيني الكاين بحومة الجنوبي خارج تطاوين ينتفع به المسجد المذكور بالبناء وشراء"³⁶²

فهل هناك تفسير تاريخي لعبارة "خارج تطاوين" الواردة في الوثائق غير أن الربضين الأسفل والأعلى كانا خارج أسوار المدينة الأصلية التي بناها سيدي المنظري في أواخر القرن الخامس عشر، وأن الأسوار التي ضمت الأرباض إلى المدينة الأصلية لم تكن قد بنيت حتى تاريخ تدوين الوثائق (1071-1089هـ)، وعليه فالأسوار لم تبين في القرن التاسع ولا العاشر كما

359 - العربي الرباطي، التطور العمراني لمدينة تطوان خلال القرنين 16 و 17 الميلاديين، ندوة تطوان خلال القرنين 16 و 17 مطبعة الهداية، 1996 ص: 241-242.

360 - حوالة أوقاف جامع العيون، غير مرقمة.

361 - حوالة أوقاف مسجد الرزيني: 11.

362 - حوالة أوقاف مسجد الرزيني: 51.

جاء في الدراسة ولا حتى الحادي عشر، بل بنيت في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وتنتمي إلى الأعمال التحصينية التي تمت في عهد المولى إسماعيل، وفي ولاية القائد علي بن عبد الله على تطوان.

كما أن هذه الأسوار ليست هي التي ما تزال أجزاء منها "قائمة إلى يومنا هذا" كما اعتقد الباحث بل إن هذه الأسوار هدمت أثناء ثورة المدينة على الباشا أحمد بن علي بن عبد الله الريفي، بعيد وفاة مولاي إسماعيل كما جاء في بعض المصادر» واقتحم تطوان في جموعه (الباشا أحمد) على حين غفلة من أهلها وانتهبها... وهدم أسوارها»³⁶³. وبالتالي فالأسوار التي ما تزال تتراءى لنا بعض أجزائها هي التي بنيت في منتصف القرن الثامن عشر على يد القائدين محمد تميم الثاني (1743-1750) ومحمد لوقش (1750-1757).³⁶⁴

وفي نفس السياق حاول بعض الباحثين التنظير لتطور تخطيط مدينة تطوان الأصلية فجاء تنظيرهم على الشكل التالي:³⁶⁵

1- تخطيط منحرج ومتداخل يتطور حول مركز معين، بحومة البلد التي بنيت في نهاية القرن 15م.

2- تخطيط شعاعي حول نواة المدينة في الربض الأسفل.

3- تخطيط موازي للتضاريس في الطالعة والعيون التي تتميز بانحداراتها الصعبة.

4- تخطيط ذو تقاطعات عمودية في الطرunkات والملاح للذين بنيا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والذي من الممكن أن يكون ناتجا عن تأثير أوربي.

5- تخطيط مجنح في حي المصلى القديمة.

في قراءة أولية يبدو أن هذا التصنيف علمي ومقبول، نعم سيكون كذلك إذا لم يربط أصحابه هذه الأنواع من التخطيطات بتواريخ محددة، فالطرunkات التي استشهد بها كدليل على وجود تأثير أوربي في تخطيط أحياء المدينة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تفيد الوثائق التي نحن بصدد إبراز أهميتها أنها كانت موجودة في القرن السابع عشر. وعليه فهذا التصنيف يبقى نسبي، ويحتاج إلى التوضيح على اعتبار أن الشكل العمراني للمدينة لم يكن جامدا، بل كان وما يزال، يعرف دينامية مورفولوجية مستمرة، تجعل استقرارنا الميداني، أو تحليل

³⁶³ - الناصري، الاستقصا، ج 8 ص: 103.

³⁶⁴ - لمزيد من الاطلاع راجع فصل العمارة العسكرية من كتابنا تطوان خلال القرن الثامن عشر تاريخ وعمران، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، 2005.

³⁶⁵ - محمد حافظ الزواقي والعربي المصباحي، الخصائص العمرانية والحضارية للمدينة العتيقة، ندوة دور الجماعات المحلية في الحفاظ على التراث وتوظيفه لصالح التنمية، 03 ماي 1998، غير منشورة. ص: 4.

الصور الجوية، لا يوافق بالضرورة التخطيط الأصلي، ولذلك أقول أن كل تنظير لعمران مدينة تطوان الأصلية لا يعتمد في بنائه على الوثائق التاريخية يبقى عاجزا عن الفهم الصحيح للتطور العمراني.

وتحتفظ لنا الوثائق الوقفية بمعلومات على جانب كبير من الأهمية بخصوص التغييرات التي طالت النسيج العمراني، كبناء تربيغات جديدة وتحويل مكان المجزرة المرة بعد الأخرى، وفتح دروب جديدة وإغلاق أخرى، هذا إلى جانب التحولات الكبرى التي عرفها النسيج العمراني نتيجة الاحتلال الإسباني للمدينة بعد حرب تطوان.

وعموما فإن المجال المبني بمدينة تطوان خلال القرن الثامن عشر كان يتوزع على ثلاث وحدات عمرانية كبرى تحيط بها أسوار حصينة وهي:

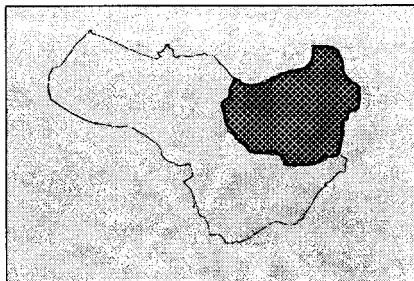
- **حومة البلد:** تم تأسيسها عام 1484 لتشكل النواة العمرانية التي انطلقت معها مسيرة البناء والتعمير بالمدينة، وبعد تأسيس الربضين الأسفل والأعلى تحولت حومة البلد إلى مركز المدينة وحيها الإداري والدبلوماسي، فاحتضنت الجامع الأعظم والمحكمة الشرعية "دار القاضي" وبجوارها "سماط العدول" ودار الأعشار أو "الديوانة" وكانت القنصلية الإنجليزية ملاصقة لدار الأعشار بالملاح البالي، وفي نفس الحي أيضا كانت قنصليات كل من فرنسا وإسبانيا ودول أوروبية أخرى. واحتضنت بعض المرافق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المهمة والتي لا يمكن أن توجد في جميع أحياء المدينة كالمارستان بالصياغين ومدرستي لوقش بالغرسة الكبيرة والروشاي بحومة الجامع الكبير، والقيسارية التي تخصصت في تجارة البضائع المستوردة والباهظة الثمن.

الوحدات العمرانية الكبرى بمدينة تطوان خلال القرن الثامن عشر

شكل 3:

حومة البلد تأسست عام 1484

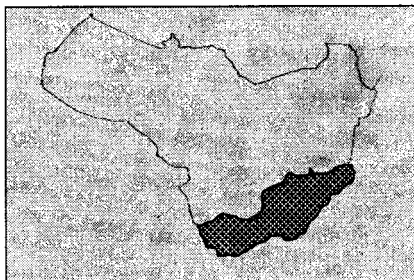
- حي جامع القصبة
- حي المطامير
- حي الملاح البالي
- حي الصياغين



شكل 4:

الربض الأسفل تأسس أواسط القرن 16

- حي الجنوبي
- حي المصدع
- حي السوقة
- حي المنجرة

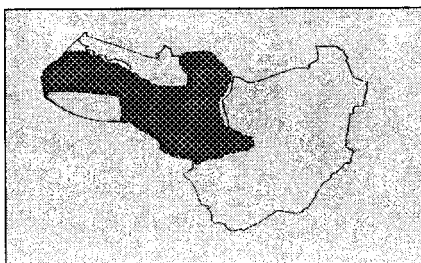


شكل 5:

الربض الأعلى تأسس أواسط القرن

16

- حي الطالعة
- حي النيارين
- حي العيون
- حي الطرنكات



- **الربض الأسفل:** ابتدأ البناء فيه أواسط القرن السادس عشر الميلادي في الجهة الجنوبية الشرقية من حومة البلد، وسمي بالأسفل لموقعه المنخفض عنها، ومن أهم أحيائه حي الجنوبي، السويقة، المصداغ، الساقية الفوقية، المنجرة، قاع الحافة، وباب العقلة. وشكل هذا الربض وحدة عمرانية متكاملة ضمت إلى جانب الأحياء السكنية شبكة من المساجد والفنادق والأسواق ودار الدباغ بالجنوبي.

- **الربض الأعلى:** شرع في بنائه في وقت مزامن لبناء الربض الأسفل أو متأخر عنه قليلا، وسمي بالأعلى لوقوعه في موضع مرتفع عن حومة البلد، كما عرف أيضا برباط الأندلس لكونه عرف استقرار موجات المهجرين المورسكيين في الربع الأول من القرن السابع عشر، وأهم أحياء هذا الربض حي الطالعة، النيارين، العيون، السانية، الطرنكات. وضم الربض الأعلى كوحدة عمرانية شبكة من المساجد ومدرسة بن قريش وأسواق وفنادق ودارين للدباغة واحدة بالفدان لم يبق لها أثر. وأخرى برأس الرخامة ما تزال آثارها ماثلة للعيان.

وفي ختام هذا المحور الذي ناقشنا من خلاله دور الوثائق الوقفية في الكشف عن التطورات العمرانية التي شهدتها مدينة تطوان خلال القرن الثامن عشر. نستطيع القول بأن هذه الوثائق يمكنها أن تسفر، إذا أحسن استغلالها، على معطيات رقمية بالغة الأهمية، وفيما يلي نقدم نماذج لمعطيات عمرانية كشفنا عنها اعتمادا على وثائق الحوالات الحبسية، ومصادر دفينة أخرى، والتي لا نجد لها أثرا في مصادر تاريخ تطوان التقليدية:

أولا: جدول بأسماء دور الدباغة وأماكن وجودها:

دار الدباغة	مكان وجودها	المصدر
- دار دباغ باب المقابر.	- قرب باب المقابر	- معظم الحوالات
- دار دباغ الجنوبي.	- بحومة الجنوبي	- حوالة المنقطعين
- دار دباغ الفدان.	- قبالة سوق الزرع القديم	- حالة الزاوية
- دار دباغ رأس الرخامة.	- برأس الرخامة	- العيساوية بالفدان
		- معظم الحوالات

ثانياً: جدول بأسماء الأبراج وأماكن وجودها:

البرج	مكان وجوده	المصدر
- برج أمسا	- أمسا	- حوالة جامع الرزيني: 160.
- بني صالح	- بني صالح	- خ. د وثيقة رقم: 337.
- برج رأس الطرف	- بالرأس الأسود	- جامع الرابطة 97.
- برج حلق الواد	- مارتيل (برج مرتيل)	- الوثائق الوقفية ت. ب. ج 2.
- برج الشريف	- غير محدد	- خ. د وثيقة رقم: 348.
- برج الاسقالة	- باب العقلة	- تاريخ تطوان، ج 2
- برج قصبة الديب	- قصبة جبل درسة	- نزهة الإخوان ص: 4.
- برج قصبة سوق الحوت	- حومة سوق الحوت القديم	- تاريخ تطوان، ج 1
- برج الطبل	- حومة جامع القصبة	- حوالة جامع القصبة: 5
- برج اللقعة	- حومة السانية (العيون)	- حوالة ج العيون: 48/39.
- برج قاع الحافة (برج السلوم)	- قرب ضريح عبد القادر التبين.	- وثائق نظارة الأحباس.
- برج سيدي مصباح	- حومة سيدي مصباح	- حوالة الأبراج: 27/47.
- برج طوبانة	- مكان المعهد الحر	- تاريخ تطوان، ج 5
- برج لوقش	- بين باب المقابر والقصبة	- تاريخ تطوان، ج 2
- برج باب النوادر	- باب النوادر	- تاريخ تطوان، ج 1
- برج السويقة	- حومة السويقة	- حوالة الناصرية: 61/45.

ثالثاً: جدول بأسماء الأرحية وأماكن وجودها.

الرحى	مكان وجودها	المصدر
رحى راغون	قاع الحافة	خ. د، وثيقة رقم: 487.
رحى المصمودي	أسفل المصلى القديمة	تاريخ تطوان، ج 2، ص: 308.
رحى الشودري	عين مزوق- تطوان	حوالة مسجد الرزيني: 52.
رحى الحفرة	عين مزوق- تطوان	تاريخ تطوان، ج 2، ص: 357.
رحى القرمود	عين مزوق- تطوان	حوالة مسجد الرزيني: 231.
رحى باب الرموز	خارج باب الرموز	تاريخ تطوان، ج 2، ص: 336.
رحى باب التوت	خارج باب التوت	حوالة مسجد الرابطة.
رحى الرشي	تحد صور البلد؟	الساقية الفوقية: 16/21.
رحى الحمام	تحد صور البلد خارج بابالتوت	حوالة الساقية الفوقية: 23/42 ح. ق: 8.
رحى الشربي	الوسايد خارج باب التوت	كناش أملاك الحبس الكبير: 1441/79.
رحى المرج	لم ينكر مكانها	كناش أملاك الحبس الكبير: 1351/75.
رحى القب	لم ينكر مكانها	حوالة مسجد الرزيني: 52.

رحى الغدير	كيتان	حوالة مسجد الرابطة: 40.
رحى الرمان	كيتان	حوالة جامع العيون، غير مرقمة.
رحى الكميت	كيتان	حوالة جامع العيون، غير مرقمة.
رحى عبد النور	كيتان	حوالة مسجد القصبية: 3.
رحى المخزن	كيتان	كناش أملاك الحبس الكبير: 1459/79
رحى بن طريفة	كيتان	حوالة مسجد الرابطة.
رحى الخالص	كيتان	حوالة مسجد القصبية: 8.
رحى الطوب	كيتان	حوالة مسجد القصبية: 14/28.
رحى بروال	كيتان	حوالة مسجد الرابطة: 16/25.

رابعاً: جدول مقارن للتحويلات العمرانية.

الوضعية الأصلية	الوضعية المتحول إليها	نوع التحول
- مدرسة الروشاي	- الجامع الأعظم	- وظيفي معماري
- مدرسة بن قريش	- زاوية بن قريش	- وظيفي معماري
- المارستان	- زاوية سيدي علي بن ريسون	- وظيفي معماري
- سجن	- زاوية أبي العباس	- وظيفي معماري
- حمام الطوب	- زاوية الخلنجي	- وظيفي
- حمام سيدي المنظري ³⁶⁶	- دكان	- وظيفي
- فندق لوقش	- زاوية سيدي علي بن ريسون	- وظيفي معماري
- فندق النجار	- الزاوية الناصرية	- وظيفي معماري
- برج سيدي مصباح	- دكاكين	- وظيفي معماري
- برج طبانة	- المعهد الحر (مدرسة)	- وظيفي معماري
- دار البنية	- مقر جمعية (خربة الآن)	- وظيفي معماري
- برج الاسفالة	- مقهى	- وظيفي
- معظم أبراج المدينة	- مساكن	- وظيفي

ملاحظات ختامية:

إن الفوائد التي يمكن للباحث في التاريخ الحضري أن يجنيها من هذا النوع من الوثائق يصعب الإلمام بها أو اختزالها في مداخلة تقدم في عشرين دقيقة إلا أنه يتضح مما سبق ذكره الأهمية الكبيرة للحوالات الحبسية في التعريف بعمران مدينة تطوان في جانبيه القانوني التنظيمي والتطور المادي، وبشكل يسمح برصد أهم ما ميز الظاهرة العمرانية بمدينة تطوان الأصلية. إضافة إلى إمكانية اعتمادها كأداة لتصحيح توضيح ما كتب حول الموضوع. و من مميزات هذا النوع من المصادر أنها تتحدث لغة الأرقام. عدد الأرحية، الأبراج، دور الدباغة، المدارس، التربيعات، الفنادق وما إلى ذلك.

³⁶⁶ - المقصود هنا الحمام الخاص الذي كان جزءاً من دار سيدي المنظري بحومة جامع القصبية.

مسألة أخرى أود أن أثيرها في هذه المناسبة، وهو أنه أمام كثرة ما يروج في الوقت الراهن حول "رد الاعتبار" للمدينة الأصلية "Réhabilitation" وعمليات الترميم، أجد نفسي مضطرا للتأكيد على مسألة بالغة الأهمية وهي أن التدخل في المجال الأصيل في مدينة تطوان إذا لم يستند إلى نتائج دراسات التاريخ العمراني، أو بعبارة أخرى إذا همش المؤرخ في صياغة مشاريع "رد الاعتبار" فإن هذا التدخل سيتسم لا محالة بالارتجالية، وسيحمل في طياته عوامل فشله، ويسفر عن نتائج عكسية كارثية تشوه التراث العمراني بدلا من صيانتته، فرد الاعتبار "Réhabilitation" ليس هو الترميم "Restauration" كما قد يعتقد البعض، والتاريخ لا يستغنى عنه في مجال "رد الاعتبار" والمحافظة على التراث.